الرِّسَالة الثَّالثة : لغة الشَّيْطان مع الصَّالحين

في هذه الرَّسَالة تنتقل دعوة الشَّيْطان من عالمية البشريَّة إلى عالم خاصٍّ بعباد الله الصَّالحين ، ومن مسلك الهجوم على بني آدم جميعًا – شقيِّهم وسعيدهم – إلى الحصون المنيعة التي احتمت بقلاع الإيمان ، وتمسَّكت بهدى الرَّحمن سبحانه وتعالى ، وذلك بعد أن تحطَّمت آماله ، وفشلت كل محاولاته في عالم أنبياء الله ورُسُله.

فعباد الله الصالحون هم زينة هذه الأرض وحسن بهائها ونور جمالها ، ولولا هؤلاء لخسف الله الأرض بمَنْ عليها ، حيث ينتقل هؤلاء من روضة طاعة إلى أخرى ، ومن عالم المثل العليا إلى عالم الحَقِّ والفضيلة ، وكأنَّها كواكب دريَّة تضييء للبشريَّة طريق الهداية ، تسعد بهم الحياة ويسعدون بها ، فخلافة الأرض وعمارتها لا تنهض إلا بهم ، ويوم القيامة يفرحون بلقاء ربهم ، ولكن هل يدع الشَّيْطان لهذا البنيان العظيم أن يستقرَّ أصله في الأرض وفرعه في السماء ؟! .

سؤال يجيب عنه واقع الحياة ، والذي يشهد بعداوة الشَّيطان لبني آدم وخاصَّة الصَّالحين منهم ، حيث ينطلق الصَّالحون في أرض الله بما وهبهم الله من قلوب جليَّة، وعقول زكيَّة ، وفطرة سويَّة ، ومنحهم طرق الهداية ، وسُبُل الرُّشد والرِّعاية ، يعبدونه لا يشركون به شيئًا ، ويعمِّرون حياتهم بالتقوى والذِّكر والإخلاص ، فيبدأ الشَّيْطان في تثبيط عزائمهم ، وغلق أبواب الرَّحمة في وجوههم ، فيظل الصراع قائمًا بينهم إلى أن تطوي الحياة صفحتها الأخيرة برحيل الجميع عن عالمها والاستقرار في عالم البقاء والخلود.

وقد حدَّثَنا القرآن الكريم عن بعض السُّبُل التي سلكها الشَّيْطان مع عباد الله الصالحين ، ظهر عنوانها ، وتبيَّنت ملامحها ، وتجسَّدت آثارها في الصُّور الآتية :

الصُّورة الأولى : سبيل الخُطُوات

وجَّه الشَّيْطان خُطُواته لكافَّة بني البشر في الرِّسَالة الأولى ، ثم أتبعها هنا بخُطُواته التي بثَّها لعباد الله الصَّالحين منهم ، وذلك محاولة منه للدُّخول إلى عالمهم والاقتراب منهم ، وإيهامهم خلاف الحَقِّ حتى يحقِّق مقصده ، ويظفر ببغيته ، ولكن أنَّى له أن يحقِّق الأمانيَّ في عالم قد حفَّته الملائكة ، وحفظه الله بحفظ من عنده ؟! .

وقد حدَّثَنا القرآن الكريم عن هذا السَّبيل في ثلاث آيات :

الآية الأولى : قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾(1) .

فهذه الآية فيها توجيه صريح من ربِّ العباد – ﷻ – إلى المؤمنين من عباده بعدم اتباع خُطُوات الشَّيْطان بكل آثاره وطرقه كليَّة دون تفصيل لها ، وذلك بقوله أولا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ , وثانيًا :﴿ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ .

وقيل إن السَّبب في نزول هذه الآية : " أن عبد الله بن سلام ، وسلام بن قيس ، وأسد وأسيد ابنا كعب، ويامين بن يامين ، وهم مؤمنو أهل التَّوراة ، استأذنوا النبي – ﷺ – في قراءة التَّوراة في الصَّلاة , وفي أمر السَّبت , وأن يعملوا ببعض ما في التَّوراة ، فقال الله– ﷻ – : خذوا سُنَّة محمد – ﷺ – وشرائعه , فإن قرآن محمد ينسخ كل كتاب كان قبله ، فقال : ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ ، يعني في شرائع الإسلام كلها ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ ، يعنى تزيين الشَّيْطان ، فإن السُّنَّة الأولى بعدما بعث محمد – ﷺ – ضلالة من خُطُوات الشيطان﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ يعنى بَيِّن(2)".

فالشَّيْطان يبدع في تزيين السُّوء وتجميل المنكر في هذا السَّبيل, فيبتدع أشياء ما أنزل الله بها من سلطان حتى يصرف الصَّالحين من عباد الله عن منهج الحَقِّ وطريق الهدى والرَّشاد , فكل ما هو خلاف شرع الله ومنهجه فهو من خُطُوات الشَّيْطان وآثاره ، لذلك يأتي التوجيه صراحة من ربِّ العباد – ﷻ – : " اعملوا أيها المؤمنون بشرائع الإسلام كلها ، وادخلوا في التَّصديق به قولا وعملا ودعوا طريق الشَّيْطان وآثاره أن تتَّبعوها فإنَّه لكم عدو مبين لكم عداوته ، وطريق الشَّيْطان الذي نهاهم أن يتَّبعوه هو مخالف حكم الإسلام وشرائعه ، ومنه تسبيت السَّبْت وسائر سنن أهل الملل التي تخالف ملَّة الإسلام(3) " .

ومن هنا فالدَّلالة:"لا تقتفوا آثاره؛لأنَّ تركهم شيئًا من شرائع الإسلام اتباع للشَّيْطان(4) " .

---

(1) البقرة الآية 208 .

(2) تفسير مقاتل بن سليمان 1/109 .

(3) جامع البيان 4/258 .

(4) معاني القرآن وإعرابه 1/280 .

openkantor.com

وأما الآية الثَّانية يقول الله تعالى فيها : ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾(1) .

فهذه الآية قد حَدَّدَت وخَصَّصَت خُطُوات الشَّيْطان حتى يحذر المؤمنون من عباد الله ما يلبِّسه الشَّيْطان على أوليائه من تحريم ما أحلَّ الله لهم ، فذكرت الآية أن "﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ ﴾ يعني الإبل والبقر، ﴿ وَفَرۡشٗا ﴾ والفرش: الغنم الصِّغار مما لا يحمل عليها ، ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ من الأنعام والحرث ﴿ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ : يعني تزيين الشَّيْطان فتحرِّمُونه(2) " .

فمداخل الشَّيطان متعدِّدة وآثاره مختلفة ومتنوِّعة فاحذروا هذا الجانب الذي تسلَّل به إلى قلوبكم ، والذي من خلاله حَرَّم ما أحلَّ الله لكم، فهذا بيان صريح من ربِّكم يقول فيه : "﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أيُّها المؤمنون ، فأحل لكم ثمرات حروثكم وغروثكم ، ولحوم أنعامكم ، إذ حرَّم بعد ذلك على أنفسهم المشركون بالله ، فجعلوا لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا وللشَّيطان مثله ، فقالوا ﴿ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ , ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ ، كما اتَّبعها باحِرُوا البحيرة ، ومسيِّبوا السَّائبة ، فتحرِّموا على أنفسكم من طيب رزق الله الذي رزقكم ما حَرَّموه ، فتطيعوا بذلك الشَّيْطان ، وتعصوا به الرَّحمن ، كما ... قال ابن زيد في قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ ، لا تتَّبعوا طاعته ، هي ذنوب لكم ، وهي طاعة للخبيث إن الشَّيْطان لكم عدو ، يبغي هلاككم وصدَّكم عن سبيل ربِّكم (مبين) قد أبان لكم عداوته بمناصبة أباكم بالعداوة ، حتى أخرجه من الجنَّة بكيده ، وخدعه حسدًا منه له وبغبًا عليه ... ثم قال لهم : كُلُوا مما رزقكم الله من هذه الثِّمار واللحوم ، واركبوا هذه الحمولة ، أيُّها المؤمنون ، فلا تتَّبعوا خُطُوات الشَّيْطان في تحريم ما حَرَّم هؤلاء الجهلة بغير أمري إيَّاهم بذلك ، قل , يا محمد ، لهؤلاء الذين حرَّموا ما حرَّموا من الحرث والأنعام اتباعًا للشَّيطان , من عبدة الأوثان والأصنام الذين زعموا أن الله حَرَّم عليهم ما هم مُحَرِّمون من ذلك , آلذكرين حرَّم ربَّكم , أيها الكذبة على الله , من الضأن

(1) الأنعام الآية 142 .

(2) تفسير مقاتل بن سليمان 1/ 474 .

والمعز ؟ فإنَّهم إن ادَّعوا ذلك وأقرُّوا به ، كذبوا على أنفسهم وأبانوا جهلهم ...لأنَّهم كانوا يقرُّون بإقرارهم بذلك أنَّ الله حرَّم عليهم ذكور الضَّأن والمعز وإناثها, أن يأكلوا لحومها أو يركبوا ظهورها , وقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها[1]" .

فتحريم ما أحلَّ الله مدخل من مداخل الشِّرك ، لذلك أتى " النهي عن شؤون الشِّرك ، فإنَّ أول خُطُوات الشَّيْطان في هذا الغرض هي تسويله لهم تحريم بعض ما رزقهم الله على أنفسهم[2] " .

وأما الآية الثَّالثة فيقول فيها ربُّنا – ﷻ-:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[3] .

فالصَّالحون من عباد الله – ﷻ – قد أغلقوا جميع منافذ الشَّيْطان وأبوابه ، ولكنه لا ييأس من إعلان الحرب عليهم ، وصَدِّهم عن هدى ربِّهم ، حتى يفتح لهم في هذا الجانب بابًا آخر من أبوابه ، وسبيلا آخر من سُبُله ، فيدق جرس الخطر تنبيهًا لهم ، وذلك بتوجيه ربِّهم : " ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ : يعني تزيين الشَّيْطان في قذف عائشة– رضي الله عنها- , ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ يعني بالمعاصي ﴿ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ يعنى : ما لا يعرف[4] ... " .

فهذا " تمثيل مبني على تشبيه حالة محسوسة بحالة مفعولة إذ لا يعرف السامعون للشيطان خُطُوات حتى ينهوا عن اتِّباعها ، وفيه تشبيه وسوسة الشَّيْطان في نفوس الذين جاءوا بالإفك بالمشي[5] " .

فالشَّيْطان في هذا الباب قد تعدَّى حدوده , وأسرف في مكره وخداعه ، حيث زيَّن لبعض الصَّالحين من عباد الله الطَّعن في أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – ورميها

---

(1) جامع البيان 182/12 : 185 .

(2) التحرير والتنوير 127/8 .

(3) النور من الآية 21 .

(4) تفسير مقاتل بن سليمان 413/2. وينظر: تفسير مجاهد . تحقيق.عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي 16/1 – المنشورات العلمية – بيروت .

(5) التحرير والتنوير 186/18 ، 187 .

بالفحشاء والمنكر ، فما كان لربِّ الأرض والسَّماء وما بينهما أن يخذل أولياءه ، ويدعهم لآثار الشَّيْطان وطرقه فبرَّأها بقرآنه الكريم حتى تظلَّ الألسنة منذ نزوله وإلى يوم القيامة تُرتِّل براءتها ، وتلهج بعفَّتها ، وتحفظ لها كرامتها وحقَّها ، وفي ذلك ذكرى للمؤمنين والمصدِّقين بكتاب ربِّهم ، وكذلك المؤمنات والمصدِّقات ، فيأتي النِّداء من ربِّ العباد – ﷻ – : " للمؤمنين به : يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله ، لا تسلكوا سبيل الشَّيْطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره ، بإشاعتكم الفاحشة في الذين آمنوا وإذاعتكموها فيهم وروايتكم ذلك عمن جاء به ، فإنَّ الشَّيْطان يأمر بالفحشاء ، وهي الزِّنا ، والمكر من القول[1] " .

فليحذر الصَّالحون من عباد الله – ﷻ – من هدم تمثال القيم والأخلاق ، ومن ضرب عنوان الصَّلاح والرَّشاد ؛ وذلك باتباع خُطُوات الشَّيْطان وآثاره ، وطرقه العامَّة والخاصَّة ، فاتِّباعه فيه إثم وضلال ، والنَّجاة منه لا تكون إلا باتِّباع هدي خير العباد محمد – ﷺ – ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

الصُّورة الثَّانية : سبيل الخوف (خ و ف)

تظلُّ قلوب المؤمنين من عباد الله في رباط وارتباط بدينهم ، يحيون في ظلال منهجه وتقديس تعاليمه ، تبدو أمارات الأمن والأمان في حياتهم ، تحفُّهم السَّكينة ، ويظلُّهم الله في ظلِّه ، ولكن الشَّيْطان يتربَّص بهم ويكيد لهم ، فيريد أن يهدم عالمهم ، ويخرجهم من جنَّة ربِّهم ، فيسيطر عليهم ببعض الأفكار والأوهام والأكاذيب التي لا علاقة لها بعالم الواقع حتى يسلب منهم كل مقوِّمات التَّفكير الصَّحيح فيزرع فيها المخاوف التي تصدُّهم عن منهج ربِّهم ، وبالتالي يسرق من بين أحضانهم كل سُبُل الرَّاحة والسَّعادة .

وهذا ظنُّه ووهمه الخاطئ الذي شرعه لعباد الله الصَّالحين في هذا السَّبيل الذي يسمى بسبيل الخوف كما صَوَّره القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] .

---

(1) جامع البيان 134/19 .

(2) آل عمران الآية 31 .

(3) آل عمران الآية 175 .

والخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة[1] .

وقد حاول الشَّيْطان أن يملك بسبيل (الخوف) قلوب المؤمنين من عباد الله الصَّالحين حتى ينزع الإيمان من قلوبهم ، فيوهمهم ويرهبهم بكثرة عدِّوهم من المشركين ، فنبَّههم الله إلى خطر هذا الأمر : " إنَّما الذي قال لكم , أيُّها المؤمنون : (إنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لكم)[2] ، فَخَوَّفوكم بجموع عدوكم ، ومسيرهم إليكم ، من فعل الشَّيْطان ، ألقاه على أفواه من قال ذلك لكم ، يخوِّفكم بأوليائه من المشركين – أبي سفيان وأصحابه من قريش – ، لترهبوهم ، وتجبنوا عنهم[3] ... " .

فتخويف الشَّيْطان للمؤمنين عن طريق " تعظيم أوليائه في أعينكم ... عن السدي : ثم ذكر المشركين وعظمهم في أعين المنافقين، إنما ذلكم الشَّيْطان يخوِّف أولياءه . قال : يعظِّم أولياءه في صدوركم فتخافوهم[4] " .

وقد " قال ابن عباس وغيره المعنى يخوِّفكم أولياءه ، أي بأوليائه أو من أولياءه ، فحذف حرف الجر ووصل الفعل إلى الاسم فنصب ، كما قال تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا ﴾[5] : أي لينذركم ببأس شديد ، أي يخوِّف المؤمن بالكافر[6] " .

ولكن يظَلُّ الخوف من الله أقرب إلى قلوب المؤمنين من تخويف الشَّيْطان لهم ، وما يلقيه عن طريق أوليائه من بثِّ الفزع والرُّعب فيهم، ومحاولة التَّفريق وبثِّ روح الخزلان بينهم ، حتى يقعدوا عن قتال عدوهم ، فيظل تعظيم الخالق ووعده بالنَّصر لهم أثبت عندهم من رؤية الشَّمس في وضح النَّهار ، ومن حركات أجسادهم التي يحيون بها ، ويصدرون أوامرهم

(1) المفردات ص 229.

(2) آل عمران من الآية 173 .

(3) جامع البيان 416/7 . وينظر : تفسير مقاتل بن سليمان 1/ 205 . وقد قيل : إنَّ المراد هذا الذي يخوِّفكم بجمع الكفار شيطان من شياطين الإنس ، إما نعيم بن مسعود أو غيره . الجامع لأحكام القرآن 283/4 .

(4) تفسير ابن أبي حاتم 820/3 ، 821 . وينظر : جامع البيان 417/7 ، والدر المنثور 391/2 .

(5) الكهف من الآية 2 .

(6) الجامع لأحكام القرآن 282/4 . وينظر : معاني القرآن وإعرابه 490/1 .

لها فتسمع وتطيع ، فتاجروا مع ربِّهم فربحت تجارتهم ، حتى يئس الشَّيْطان أن يعبد بأرضهم ، أو أن يجد له مسكنًا في قلوبهم .

" إنَّ الشَّيْطان هو الذي يضخِّم من شأن أوليائه ، ويلبسهم لباس القوَّة والقدرة ، ويوقع في القلوب أنَّهم ذو حول وطول ، وأنَّهم يملكون النَّفع والضر ، ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه ، وليحقِّق بهم الشَّرَّ في الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرِّقاب ويطوِّع لهم القلوب ، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ؛ ولا يفكر أحد في الانتفاض عليهم ، ودفعهم عن الشَّرِّ والفساد . والشَّيْطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل ، وأن يتضخَّم الشَّرُّ ، وأن يتبدَّى قويًّا قادرًا قاهرًا بطاشًا جبَّارًا , لا تقف في وجهه معارضة ، ولا يصمد له مدافع ، ولا يغلبه من المعارضين غالب ، الشَّيْطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا . فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفي ظلِّ الإرهاب والبطش ، يفعل أولياؤه في الأرض ما يقرُّ عينه ! يقلبون المعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا ، وينشرون الفساد والباطل والضَّلال ، ويخفتون صوت الحقِّ والرُّشد والعدل ، ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشَّر وتقتل الخير ، دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ، ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة ، بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروِّجون له ، وجلاء الحق الذي يطمسونه. والشَّيطان ماكر خادع غادر ، يختفي وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته ، ومن هنا يكشفه الله ، ويوقفه عاريًا لا يستره ثوب من كيده ومكره ، ويعرف المؤمنون الحقيقة : حقيقة مكره ووسوسته ، ليكونوا منها على حذر ، فلا يرهبوا أولياء الشَّيْطان ولا يخافوهم ، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربِّه ، ويستند إلى قوَّته . إن القُوَّة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القُوَّة التي تمتلك النَّفع والضر ، هي قوَّة الله , وهي القُوَّة التي يخشاها المؤمنون بالله ، وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء ، فلا تقف لهم قوَّة في الأرض ، لا قوَّة الشَّيْطان ولا قوَّة أولياء الشَّيْطان ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[1] ".

ومن هنا فسمات الشَّيْطان واضحة المعالم ، بارزة بروز الشَّمس في كبد السَّماء مع

(1) آل عمران من الآية 175 . في ظلال القرآن 1/521 .

الصَّالحين من عباد الله ، ولكنها مبهمة مع أوليائه الذين عظَّموه ونصروه ، وجعلوه هامة في عالم الأقزام : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾[1].

وقد قيل في بعض الآراء إن تخويف الشيطان في الآية يتجه إلى أوليائه المؤمنين به ، والخاضعين والمستسلمين له ، فـ " المعنى يخوف أولياءه المنافقين ، ليقعدوا عن قتال المشركين ، فأمَّا أولياء الله فإنَّهم لا يخافونه إذا خَوَّفهم[2]" .

فعلى ألسنة هؤلاء ظهرت كلمة الإسلام ، وأنطقهم الله بها ، ولكن قلوبهم منها خواء وأفئدتهم هواء،قبلتهم الشَّيْطان، ورأس مالهم الغدر والخيانة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[3] .

الصُّورة الثَّالثة : سبيل الرِّجْز (رج ز)

يعيش الصَّالحون من عباد الله مع ربِّهم في عالم عنوانه الصِّدق والإخلاص والتَّقوى والصَّلاح ، تسعد قلوبهم وتطمئن جوارحهم , في حالة ربَّانيَّة وعلاقة إيمانيَّة ، وفي بيت هادئ تنسج خيوطه بالمحبَّة والوفاء ، يرقون إلى قمة الطَّاعة والولاء في علاقتهم بخالق الأرض والسَّماء،ولكن كيف يهنأ الشيطان وخصمه على تلك الحالة الربَّانية والصِّفة الإيمانية؟.

يمنِّي الشَّيْطان نفسه بفرصة ذهبية يثني بها هؤلاء عن عبادة ربِّهم وتوحيد كلمتهم ، فيعرض عليهم المنكرات ويُجمِّلها في أعينهم حتى يزيل من قلوبهم قلاع الإيمان وحصون هدي الرَّحمن سبحانه وتعالى فيهوي بهم من قمة الطَّاعة إلى قاع المعصية ، ومن بيوت أُسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان إلى بيت بُني على شفا جُرُف هار , ولكن تحقيق الأماني لا يكون بالتمنِّي بل يحتاج إلى كثير من وسائل الجدِّ والاجتهاد ، وسبل الإغواء والضَّلال ، وجيش جرار يمتلك أساليب الفتنة وفنون القتال , والصحابة الكرام – رضوان الله عنهم – يعيشون مع نبيِّهم – ﷺ – في حالة إيمانية قد تصل إلى درجة الكمال ، يقتفون أثره، ويسيرون على نهجه وخطاه ، ولكن الشَّيْطان لا تقر عينه ولا تهدأ نفسه ، إلا بعد أن يرى لسُبُله وطرقه

---

(1) الأنعام من الآية 125 .

(2) الجامع لأحكام القرآن 282/4. وينظر : معاني القرآن وإعرابه 490/1 .

(3) الحشر من الآية 14 .

واقعًا ملموسًا في حياة هؤلاء العظام .

و(الرِّجْز) هو سبيل الشَّيْطان في هذه الصُّورة التي يقول فيها ربُّنا - ﷻ - : ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾[1] .

والرِّجْز هو القَذَر مثل الرِجْس[2]، وقيل معنى الرِّجْز في القرآن: هو العذاب المُقَلْقِل لشدَّته ، وله قلقلة شديدة متتابعة[3] .

وهذه الآية تعرض لبعض مواقف الصحابة في حربهم مع المشركين واستغلال الشَّيْطان لها ، حيث يجاهد نفسه في فرض سيطرته عليهم ، وتشويش عقيدتهم ، وإشعال نار الفتنة في قلوبهم ، حيث " بات المسلمون ليلة بدر على غير ماء ، فأصبحوا مجنبين ، فوسوس إليهم الشَّيْطان فقال : تزعمون أنكم على دين الله وأنتم على غير الماء وعدوكم على الماء تصلُّون مجنبين ، فأرسل الله عليهم السَّماء وشربوا واغتسلوا ؛ وأذهب الله عنهم رِجْز الشَّيْطان يعني وسوسته ، وكانوا في رمل تغيب فيه الأقدام فشدَّده المطر حتى اشتدَّ عليه الرِّجال ، فذلك قوله ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾[4] ".

وبذلك أذهب الله عنهم رجز الشَّيْطان ، والذي يمكن توجيه الدَّلالة فيه إلى ما أوقعه في قلوبهم من الصَّلاة بغير طهور ، أو ما أوقعه في قلوبهم من قوله ليس لكم بهؤلاء طاقة فيضعفوا عن قتال عدوهم[5].

إذًا فالرِّجْز قد يكون حِسِّيًّا أو معنويًا ، حيث قيل : " الرِّجْز القَذَر, والمراد الوسخ الحسِّي وهو النَّجس ، والمعنوي المعبر عنه في كتب الفقه بالحدث ، والمراد الجنابة ، وذلك هو الذي يعم الجيش كله ، فلذلك قال : ﴿ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ ، وإضافته إلى

---

(1) الأنفال الآية 11 .

(2) الصحاح 878/3 .

(3) لسان العرب 1589/3.

(4) معاني القرآن للفراء 404/1 . وينظر : جامع البيان 425/13 ، وتفسير ابن أبي حاتم 1665/5 ، والمحرر الوجيز 25/8 .

(5) ينظر : جامع البيان 425/13 ، وتفسير ابن ابي حاتم 1665/5 .

الشَّيْطان لأنَّ غالب الجيش لما ناموا احتلموا فأصبحوا على جنابة ، وذلك قد يكون خواطر الشَّيْطان يخيلها للنَّائم ليفسد عليه طهارته بدون اختيار طمعًا في تثاقله عن الاغتسال حتى يخرج وقت صلاة الصُّبح ؛ ولأنَّ فقدان الماء يلجئهم إلى البقاء في تنجُّس الثِّياب والأجساد ، والنَّجاسة تلائم طبع الشَّيْطان[1] " .

ومع ذلك فما لطَّخه بكم من قذارة في الجسم بالحَدَث , أو في القلب بالوسوسة ، فماء المطر سيطهركم جسميًّا ونفسيًّا بالوضوء والصلاة[2] .

" والمدد على هذا النحو مدد مزدوج : ماديٌّ وروحي ، فالماء في الصحراء مادة الحياة ، فضلا على أن يكون أداة النَّصر ، والجيش الذي يفقد الماء في الصَّحراء يفقد أصحابه قبل أن يواجه المعركة ، ثم هذه الحالة النَّفْسيَّة التي صاحبت الموقف ووسوس بها الشَّيْطان ! حالة التحرُّج من آداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء ، (ولم يكن قد رخص لهم بعد في التَّيمم ، فقد جاء هذا متأخرًا في غزوة بني المصطلق في السَّنَة الخامسة) ، وهنا تثور الهواجس والوساوس ، ويدخل الشَّيْطان من باب الإيمان ليزيد حرج النُّفوس ووجل القلوب ! والنُّفُوس التي تدخل المعركة في مثل هذا الحرج وفي مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها , وهنا يجئ المدد وتجيء النَّجْدة ... ويتمُّ المدد الرُّوحي بالمدد المادي؛ وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطَّهارة ، وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرِّمال[3] " .

وعلى أيَّة حال فما إن أنزل الله ماء المطر حتى ذهب وزال عنهم رِجْز الشَّيْطان ووساوسه التي كاد بها أن يفتنهم في دينهم, ويلبِّس عليهم عقيدتهم ، ولكن رحمة الله وعنايته كانت أقرب إليهم ، فأنزل عليهم الصَّبر فثبتوا في وجوه عدوِّهم حتى كتب لهم النَّصر عليهم ، فما كان للشَّيطان على هؤلاء الصَّحب العظام من سبيل .

وفي التَّطهير بالماء دَلالة على أن إطفاء رِجْز الشَّيْطان ووسوسته كإطفاء نار الغضب واشتعاله ، فالغضب نتاج من خَطَراته ، فإذا غضب المؤمن واشتد غضبه ، أو سيطر عليه

---

(1) التحرير والتنوير 279/9 .

(2) القاموس القويم 255/1 . وينظر : معاني القرآن للفراء 242/2 , والمفردات ص 274.

(3) في ظلال القرآن 1485/3 .

شيطانه فليذهب إلى وضوئه حتى يطمئن فؤاده وتسكن جوارحه ، فتستقر عقيدته على توحيد ربِّه وطاعته ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] .

الصُّورة الرَّابعة : سبيل الزَّلل (زل ل)

لن تتحقَّق الآمال بالخلود إلى النَّوم ، ولن تكون الأحلام حقيقة مشاهدة بالدَّعة والركون إلى الرَّاحة ، إنَّما يحتاج صراع الحياة إلى أصحاب النَّفس الطَّويل ، فقد يكبو المرء في حياته ، ولكن ليس معنى ذلك أن ينكسر أو يظل قابعًا في كبوته إنَّما عليه أن يقف ويصلب ويشتدَّ صلبه حتى يعود من محنته كجواد أُحْسِن تدريبه فبرع وفاق الأقران .

وكذلك يكون الشَّيْطان ، فليس معنى فشله في مهمَّة من المهمات أن يصاب بالكسل والإحباط ، أو أن يصاب بالذِّلة والهوان ، فلن يضعف ذلك من عزيمته أو يثنيه عن هدفه ، ولكن يجهِّز نفسه ويعود للسَّاحة بعدما تعلَّم الدرس وأتقن فنونه بخبراته الطَّويلة التي مارسها مع جميع بني آدم ، فيزداد بها مكرًا ودهاء وخداعًا .

فالشَّيْطان قد عرض رِجْزه على الصَّحابة الكرام – رضوان الله عنهم – في سبيل سابق فوجد بها قلوبًا تمكَّن منها الإيمان ، وصدًّا منيعًا في جميع وجوه الذُّنوب والمعاصي والآثام ، فأبى كبرياؤه أن يرفع راية الاستسلام فحوَّل رداءه إلى سبيل آخر من سُبُل الإغراء والوسوسة والخداع .

والزَّلَّة هي هذا السَّبيل الذي حاول الشَّيْطان من خلاله أن يفتح بابًا إلى قلوب الصَّحابة الكرام – رضوان الله عنهم – جَسَّدته لفظة (ٱسْتَزَلَّهُم) في قول الله – ﷻ – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[2] .

فهذه الآية تعرض لحال الذين تولَّوا عن قتال المشركين عامَّة يوم أُحُد ، وذلك بسبب ما زيَّنه الشَّيْطان لهم من خطايا أسلفت منهم ، فهم – رضوان الله عنهم – " لم يتولَّوا في قتالهم على جهة المعاندة ، ولا على الفِرار من الزحف رغبة في الدُّنيا خاصَّة ، وإنما ذكَّرهم الشَّيْطان

(1) الزمر من الآية 21 .

(2) آل عمران الآية 155 .

خطايا كانت لهم فكرهوا لقاء الله إلا على حال يرضونها ، فلذلك عفا عنهم وإلا فأمر القتال والتولِّي في الجهاد إذا كانت العُدَّة أقل من المثلين أو كانت العُدَّة مثلين، فالفرار أمر عظيم[1] ".

وقيل بأن استزلال الشَّيْطان في الآية يتَّجه إلى هؤلاء الرُّماة خاصَّة ، وذلك من خلال " مفارقة موقفهم وعصيان أمر الرَّسُول ، والتنازع ، والتَّعجيل إلى الغنيمة ، والمعنى أن ما أصابهم من آثار الشَّيْطان وما هم فيه ببعض ما كسبوا من صنيعهم ، والمقصد من هذا إلقاء تبعة ذلك الانهزام على عواتقهم[2] ".

وعلى وجه العموم فقد عرض بعض العلماء عدَّة دَلالات لقوله تعالى : ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ منها : " قال الحسن ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ قبولهم من إبليس ما وسوس إليهم . وقال الكلبي : زيَّن لهم الشَّيْطان أعمالهم . وقيل : لم يكن الانهزام معصية , لأنَّهم أرادوا التَّحصُّن بالمدينة , فيقطع العدو طمعه فيهم لما سمعوا النبي – ﷺ – قُتِل ، ويجوز أن يقال : لم يسمعوا دعاء النبي – ﷺ – للهول الذي كانوا فيه . ويجوز أن يقال : زاد عدد العدو على الضِّعف ؛ لأنهم كانوا سبعمائة والعدد ثلاثة آلاف ، وعند هذا يجوز الانهزام ولكن الانهزام عن النبي – ﷺ – خطأ لا يجوز ، ولعلهم توهَّموا أن النبيَّ – ﷺ –انحاز إلى الجبل أيضًا ، وأحسنها الأول ، وعلى الجملة فإن حمل الأمر على ذنب محقَّق فقد عفا الله عنه ، وإن حمل على انهزام مسوغ فالآية فيمن أبعد في الهزيمة وزاد على القدر المسوغ[3] " .

إذًا فهذه الآية فيها " يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أُحُد وما الذي أوجب لهم الفرار ، وأنَّه من تسويل الشَّيْطان ، وأنَّه تسلَّط عليهم ببعض ذنوبهم ، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ، ومكَّنوه بما فعلوا من المعاصي لأنَّها مركبه ومدخله ، فلو اعتصموا بطاعة ربِّهم لما كان له عليهم من سلطان ، قال تعالى :﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾[4]، ثم أخبر أنَّه عفا عنهم بعد ما فعلوا ما يوجب المؤاخذة ، وإلا فلو واخذهم لأستأصلهم[5]" .

(1) معاني القرآن وإعرابه 1/481 .
(2) التحرير والتنوير 4/140 .
(3) الجامع لأحكام القرآن 4/244 .
(4) الإسراء من الآية 65 .
(5) معالم التنزيل 1/153 .

فالآية الكريمة ترفع شعار غلق جميع أبواب الشَّيَاطين ، وبناء سدٍّ منيع لمنعهم من التَّسلُّل إلى قلوب المخلصين من عباد الله - ﷻ - حتى تظلَّ في مأمن من وساوسهم وهواجسهم ، فالآية " في عمومها تصوير لحال النَّفْس البشريَّة حين ترتكب الخطيئة، فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف بالله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس ، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه ! وعندئذ يجد الشَّيطان طريقه إلى هذه النَّفس ، فيقودها إلى الزَّلة بعد الزَّلة ، وهي بعيدة عن الحمى الآمن ، والركن الركين . ومن هنا كان الاستغفار من الذَّنب هو أول ما توجَّه به الرِّبيون الذين قاتلوا مع النبيين في مواجهة الأعداء. الاستغفار الذي يردُّهم إلى الله ، ويقوِّي صلتهم به، ويعفي قلوبهم من الأرجحة ، ويطرد عنها الوساوس , ويسدُّ الثغرة التي يدخل منها الشَّيْطان ، ثغرة الانقطاع عن الله ، والبعد عن حماه ، هذه الثَّغْرة التي يدخل منها فيزل أقدامهم مرَّة ومرَّة ، حتى ينقطع بهم في التيه ، بعيدًا بعيدًا عن الحمى الذي لا ينالهم فيه ! ويحدِّثهم الله أن رحمته أدركتهم ، فلم يدع الشَّيْطان ينقطع بهم ، فعفا عنهم ، ويعرفهم بنفسه – سبحانه– فهو غفور حليم ، لا يطرد الخطاة ولا يعجل عليهم ، متى علم من نفوسهم التطلُّع إليه ، والاتصال به ، ولم يعلم منها التمرُّد والتفلت والإباق[1] ! ".

فهذه رسالة إلى كل من أدركه الزَّلل فوقع في مخالفة ، أو لبَّس عليه الشَّيْطان أمر دينه , أو تاهت به السُّبُل أن يعلم أن مغفرة الله وعفوه وحلمه أقرب إليه من حبل الوريد ، وأن من أدركته سحائب الرحمة ، ونسمات الهدى ، ورحيق الرَّشاد فهو العبد السعيد ، ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[2] .

الصُّورة الخامسة : سبيل الطَّائف (ط و ف)

تحتاج السِّباحة إلى مهارات وقدرات خاصَّة , وكذلك الرِّماية والفروسيَّة ، وكل مجال تجد فيه بابًا من أبواب المنافسة ، فتلحظ البراعة والتفوق لمَنْ يجيد فنَّ التَّعامل مع خصمه .

وحال الشَّيْطان كحال الصائد البارع الذي يحوم حول فريسته التي يريد أن ينقضَّ عليها ، فيحقِّق من خلالها آماله وأحلامه ، فهو صاحب موهبة خاصَّة وقدرات هائلة تمكِّنه من

---

(1) في ظلال القرآن 1/497 ، 498 .

(2) هود الآية 108 .

obeikandi.com

اختراق قلوب بني آدم والسَّيطرة عليها , وخاصَّة هؤلاء السُّكارى الذين تمكَّن منهم حبُّ الدُّنيا وكراهيَّة الموت ، أما الصَّالحون فلا سبيل إلى استعباد قلوبهم .

والشَّيْطان في هذا السبيل يقدِّم أنموذجًا مصغرًا يُجَسِّد من خلاله صورة من يحوم حول حمى بني آدم فيداعب أفكارهم وخيالاتهم ، ويسرح بها في عالم الفضاء ، فيخيُّل إليهم أن الحلم حقيقة والوهم صدق ويقين ، حيث يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم , في صحوهم ومنامهم ، في جدِّهم وهزلهم ، في شبابهم وأراذل عمرهم ، يقدِّم لهم ما يشتهون ويحقِّق لهم ما يتمنون في عالم الخيال حتى يسيل لعابهم ويقعون فريسة لمكره وخداعه، ولكن أنَّى يتحقَّق له ذلك في عالم عنوانه : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾(1)؟! .

وهذا هو سبيل (الطَّائف) الذي عرض له القرآن الكريم في قول ربِّنا – ﷻ – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ . وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴾(2) .

فالطَّواف هو : " المشي حول الشيء . ومنه الطَّائف لمن يدور حول البيت حافظًا . يقال : طاف به يطوف(3) " .

" فالطَّائف هو الذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له ، فهو النازل بالمكان قبل دخوله المكان ، أطلق هنا على الخاطر الذي يخطر في النَّفْس يبعث على فعل شيء نهي الله عن فعله ، شَبَّه ذلك الخاطر في مبدأ جولاته في النَّفْس بحلول الطائف قبل أن يستقرَّ ، وكانت عادة العرب أن القادم إلى أهل البيت ، العائذ بربِّ البيت , المستأنس للقرى يستأنس ، فيطوف بالبيت ، ويستأذن(4) " .

وأما " الطَّائف من الشَّيْطان : مَسُّه للإنسان بالوسوسة ، فهو يأتيه من كل جهة ليضلَّه ولا ينجِّيه منه إلا ذكر الله(5) " .

---

(1) الأحزاب من الآية 23 .

(2) الأعراف الآيتان 201 ، 202 .

(3) المفردات ص 412 . وينظر : لسان العرب 2722/4 .

(4) التحرير والتنوير 232/9 .

(5) القاموس القويم 409/1 .

وطائف الشَّيْطان في الآية قد تتَّجه دَلالته نحو " الغضب ، أو إذا زلُّوا تابوا أو الَّلمة من الشَّيْطان ، أو طائف من الطوفان ، أي يطوف عليهم بوساوسه يأمرهم بالمعصية[1] " .

" قال الأزهري : الطَّيف في كلام العرب الجنون , وقيل للغضب طيف لأنَّ الغضبان يشبه المجنون . وقيل سُمِّي الجنون والغضب والوسوسة طيفًا لأنَّه لمَّة من الشَّيْطان تشبه لمَّة الخبال فذكر في الآية الأولى النَّزغ وهو أخفُّ من الطَّيف المذكور في هذه الآية ؛ لأنَّ حال الشَّيْطان مع الأنبياء أضعف من حاله مع غيرهم[2] " .

فهذه الآية الكريمة تعرض لحال المؤمنين الصَّادقين مع أنفسهم المخلصين لربِّهم ، يحاول الشَّيْطان أن يتمكَّن منهم في كل طريق سلكوه، أو منهج اتَّبعوه ، ولكن لن يكون له عليهم من سلطان ، في حين يتمكَّن من قلوب هؤلاء الذين استمعوا وأنصتوا له ، واتَّبعوا هديه ، وساروا على دربه ، وهذا هو عنوان الآية التي تليها .

وهنا تتجلَّى ملامح الإيمان والكفر في أبرز صورها ، حيث سيطرت مخافة الله على قلوب المخلصين ، ومخافة الشَّيْطان على قلوب الكافرين ، حيث تجد أن " ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ الله من خلقه ، فخافوا عقابه ، بآداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ ﴾ ... إذا ألمَّ بهم لمم من الشَّيْطان من غضب أو غيره مما يصدُّ عن واجب حقِّ الله عليهم ، تذكَّروا عقاب الله وثوابه ، ووعده ووعيده ، وأبصروا الحق فعملوا به ، وانتهوا إلى طاعة الله فيما فرض عليهم ، وتركوا فيه طاعة الشَّيْطان ... فيقال : إن الذين اتَّقَوا إذا عرض لهم عارض من أسباب الشَّيْطان ، ما كان ذلك العارض ، تذكَّروا أمر الله وانتهوا إلى أمره . وأما قوله : ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ , فإنَّه يعني : فإذاهم مبصرون هدى الله وبيانه وطاعته فيه , فمنتهون عما دعاهم إليه طائف الشَّيْطان ... عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ يقول : إذا هم منتهون عن المعصية ، آخذون بأمر الله ، عاصون للشَّيطان[3] "

(1) ينظر : تفسير مجاهد 126/1 ، وتفسير ابن أبي حاتم 1640/5 ، و الدُّر المنثور 632/3 ، ولباب التأويل 329/2 .

(2) لباب التأويل 329/2 .

(3) جامع البيان 333/13، 334، 373 . وينظر : تفسيرمقاتل بن سليمان 430/1 .

obeikandi.com

ف " المتَّقي إذا أحسَّ بذنب ، ومسَّه طائف من الشَّيْطان ، فأذنب بفعل محرَّم أو ترك واجب تذكَّر من أي باب أُتِيَ ، ومن أي مدخل دخل الشَّيْطان عليه ، وتذكَّر ما أوجب الله عليه ، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى ، واستدرك ما فرط منه بالتَّوبة النَّصُوح والحسنات الكثيرة ، فرَّد شيطانه خاسئًا حسيرًا ، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه . وأما إخوان الشَّيَاطين وأولياؤهم ، فإنَّهم إذا وقعوا في الذُّنوب ، لا يزالون يمدونهم في الغيِّ ذنبًا بعد ذنب ، ولا يقصِّرون عن ذلك ، فالشَّيَاطين لا تقصر عنهم بالإغواء ، لأنَّها طمعت فيهم ، حين رأتهم سلسي القياد لها ، وهم لا يقصِّرون عن فعل الشَّرِّ[1] " .

فالموازنة إذًا بين فريقين ، فريق تجنَّب طائف الشَّيْطان ، وفريق وقع في شراكه ، فالآيتان " خبر عن فريقي الإيمان والكفر ، بأنَّ فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزَّلهم الشَّيْطان تذكَّروا عظمة الله وعقابه ، فكفَّتهم رهبته عن معاصيه ، وردَّتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله ممَّا كان منهم زِلَّة ، وأن فريق الكافرين يزيدهم الشَّيْطان غيًّا إلى غيِّهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله ، ولا يحجزهم تقوى الله , ولا خوف الميعاد إليه عن التَّمادي فيها والزِّيادة منها , فهم أبدًا في زيادة من ركوب الإثم ، والشَّيْطان يزيده أبدًا ، لا يقصر الإنسيُّ عن شيء من ركوب الفواحش ، ولا الشَّيْطان من مَدِّه منه[2] " .

فهؤلاء هم حزب الله الذين احتموا بحماه ، فأبصروا الحقَّ واتَّبعوه , وآووا الهدى ونصروه ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3], ثم هؤلاء هم حزب الشَّيْطان الذين كان لدربهم رفيقًا،ولو وحدتهم أنيسًا ولغربتهم أليفًا﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[4].

وهكذا يطوف الشَّيطان بالمؤمنين من عباد الله – ﷻ – فيجد أعينًا لا تبصر ، وآذانًا لا تسمع ، وقلوبًا تمكَّن الإيمان منها , فيسافر إلى أوليائه المخلصين له فيجد أرضًا خصبة يزرع فيها ويحصد في يوم وليلة ، حيث تبصر العيون ، وتسمع الآذان ، والقلوب التي تمكَّن الشِّرك والنِّفاق منها.

---

(1) معالم التنزيل 1/313 .

(2) جامع البيان 13/338 . وينظر: تفسير مقاتل بن سليمان 1/430 ، 431 .

(3) المجادلة من الآية 22 .

(4) المجادلة من الآية 19.

ولذلك مع المؤمنين المخلصين جاء " التعبير بفعل (مَسَّهم) الدَّال على إصابة غير مكينة ، إشارة إلى أن الفزع إلى الله من الشَّيْطان ، عند ابتداء إلمام الخواطر الشَّيْطانية بالنَّفْس ؛ لأنَّ تلك الخواطر إذا أهملت لم تلبث أن تصير عزمًا ثم عملا[1] " .

لذلك تنطق هذه الحقيقة التي تؤكِّد أن " مسَّ الشَّيْطان عمى ، وأن تذكُّر الله إبصار ، إن مسَّ الشَّيْطان ظلمة ، وإن الاتجاه إلى الله نور ، إن مسَّ الشيطان تجلوه التَّقْوى ، فما للشَّيْطان على المتَّقِين من سلطان[2] " .

فمن أبصر طريق الحَقِّ واتَّبَعه كان الهدى له ضياء ، ومن أظلم عقله وقلبه فليس له يوم القيامة عند الله عزاء ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[3] .

الصُّورة السَّادسة : سبيل العمل (ع م ل)

يحرص الشَّيْطان على تنوِّع أشكاله واختلاف ألوانه ظنًّا منه أنَّ هذا يساعده على تحقيق آماله وأحلامه ، ولكن ربَّما تتَّحد صورته ويبقى رسمه ثابتًا عندما يدخل إلى روضة الأنبياء والصَّالحين.

وقد ظهر أثر ذلك في عنوان الرِّسَالة الثَّانية والتي كان (عمل الشيطان) فيها سبيلا إلى أنبياء الله ورسله ، وبالتَّالي لم تتغير صورته مع هؤلاء الذين يتأسون بحياة أنبيائهم ، ويقتدون بهديهم ، وهم الصَّالحون ، الذي أعلوا بناء الدِّين ورفعوا قواعده ، وكأنَّه لا يهدأ ولا يفتر عن المخلصين من عباد الله – ﷻ – .

فالشَّيْطان في حركه دائمة وعمل متواصل ، تساعده إمكاناته وطاقاته ، حريص على تحقيق هدفه ، يقدِّر الخُطْوة قبل أن يخطوها ، يعلم مدخل كل إنسان ومخرجه ، ما يحبُّ وما يكره ، رافعًا سلاحه ، لا يحطُّ رحاله ، ولا يعتريه الوهن أو الضَّعف ، بل يظل شعاره دائمًا رفع راية العصيان ، وأسرُّ القلوب والأبدان ، يحيا في عالم الآثام وكله رغبة ورجاء في هلاك

(1) التحرير والتنوير 9/232 ، 233 .
(2) في ظلال القرآن 3/1420 .
(3) الإسراء الآية 72 .

بني الإنسان ، فهل يتذكَّر من صرف وجهه وقلبه عن هدي الرَّحمن ، وارتمى في أحضان الشَّيْطان ؟ .

وقد حَذَّر القرآن الكريم من كل هذا درءًا للفتنة ، وإثباتًا للحجَّة والبيِّنة , وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[1] .

وهذه الآية " نزلت في سعد بن أبي وقاص – ﷺ – , وفي رجل من الأنصار , يقال : عتبان بن مالك الأنصاري ، وذلك أنَّ الأنصاري صنع طعامًا ، وشوي رأس بعير، ودعا سعد بن أبي وقاص إلى الطَّعام، وهذا قبل التَّحريم ، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا ، وقالوا الشِّعر ، فقام الأنصاري إلى سعد ، فأخذ إحدى لحيي البعير، فضرب به وجهه فشَجَّه ، فانطلق سعد مستعديًا إلى رسول الله – ﷺ – فنزل تحريم الخمر[2] " .

والشَّيْطان في هذا السَّبيل حاول أن يتسلَّل إلى قلوب الصَّالحين المخلصين ، وذلك من خلال بعض الأشياء التي رغبوا فيها في جاهليتهم واشتدَّ حرصهم عليها ، حيث كانت من جملة عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ، وذلك حتى لا ينهضوا لمقاومته أو مصارعته فبدأ " بالخمر" وهي كل ما خامر أو ستر العقل ، ثم " الميسر" يعني به القمار كله ، والأنصاب : يعني الحجارة التي كانوا ينصبونها ويذبحون لها ، والأزلام: سهام كانت في الكعبة يقتسمون بها في أمورهم وواحدها زَلَمٌ[3] .

ولكن الله – ﷻ – نبَّههم وحذَّرهم من خطورة هذه الأشياء ومآلها في الدُّنيا والآخرة ، فأرسل إليهم هذه الرِّسالة النَّصِّيَّة التي ينصُّ فيها على حرمة هذه الأشياء وعلى جرم فاعليها ، فوصفها جميعًا بأنَّها رجس من عمل الشيطان " والرِّجْس في اللغة : اسم لكل ما استُقْذِر من عمل ، فبالغ الله في ذمِّ هذه الأشياء ، وسماها رجْسًا ، وأعلم أنَّ الشَّيْطان يُسَوِّل ذلك لبني آدم

(1) المائدة الآيتان 90 ، 91 .

(2) تفسيرمقاتل بن سليمان 319/1 .

(3) ينظر : معاني القرآن للفراء 319/1 ، ومعاني القرآن وإعرابه 291/1 ، 203/2 ، وتفسير مقاتل بن سليمان 319/1 .

obeikandl.com

، يقال رَجِسَ الرجل يَرْجَسُ ، ورجَسَ يَرْجُسُ ، إذا عمل عملا قبيحًا ، والرِّجْس – بفتح الراء – : شدَّة الصَّوت ، فكان الرِّجس العمل الذي يقبح ذكره ، ويرتفع في القبح[1] " .

فالشَّيْطان يُجَمِّل الأشياء في الظَّاهر ، ويُزَيِّنها في العيون والقلوب حتى تبدو وكأنَّها ذهب خالص لم تمسه الأيدي ، حتى إذا ما دنت منها النَّفْس وهمَّت بتقبيلها واحتضانها أغلقت عيون الصَّالحين جفونها ، وقلوبهم أبوابها ، فالشَّيْطان " يُحَسِّن ذلك لكم ، إرادة منه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر، ومياسرتكم بالقداح ليعادي بعضكم بعضًا ، ويبغِّض بعضكم إلى بعض ، فيشتِّت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان ، وجمعه بينكم بإخوة الإسلام . ويصدكم عن ذكر الله ... ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم ، وباشتغالكم بهذا الميسر ، عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصَّلاة التي فرضها عليكم ربُّكم[2] " .

فليعلم الصَّالحون أن الشَّيْطان يعمل على تفعيل هذه الأشياء وتقويتها في قلوبهم , وزرعها في حدائق حياتهم ، فهي صورة واقعية من عمله كلما خبت زادها اشتعالا ، فهذه الأشياء " موجبة للعداوة والبغضاء بين النَّاس ، والشَّيْطان حريص على بثِّها ، خصوصًا الخمر والميسر ، ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء ، فإنَّ في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حجاه ، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين , خصوصًا إذا اقترن بذلك من السِّباب ما هو من لوازم شارب الخمر ، فإنَّه ربَّما أوصل إلى القتل ، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر ، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ، ما هو أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء ، ومنها أن هذه الأشياء تصدُّ القلب ، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصَّلاة ، اللذين خلق لهما العبد ، وبهما سعادته ، فالخمر والميسر ، يصدَّان عن ذلك أعظم صدٍّ , ويشتغل قلبه ، ويذهل لُبُّه في الاشتغال بهما ، حتى يمضي عليه مدَّة طويلة وهو لا يدري أين هو ، فأيُّ معصية أعظم وأقبح من معصية تدنِّس صاحبها ، وتجعله من أهل الخبث ، وتوقعه في أعمال الشَّيْطان

(1) معاني القرآن وإعرابه 2/203 ، 204 .
(2) جامع البيان 10/565 .

openkanz.com

وشباكه ، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها ، وتحول بين العبد وبين فلاحه ، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، وتصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ؟ فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها[1] ؟ " .

فهذا هو الشَّيْطان ينتقل بالصَّالحين من سبيل إلى آخر ، يُزَيِّن لهم الحرام ويُجَمِّله في أعينهم حتى ينتقل بهم من وصف الصالحين من عباد الله – ﷻ – إلى الخارجين عن حدوده ظنًّا منه أنه سيجد مسكنًا في قلوبهم ، أو هوى في أنفسهم ، ولكن هيهات ذلك وحصنهم الحصين منهج ربِّهم وهدى نبيِّهم محمد – ﷺ – .

فإذا كان الشَّيْطان رمز الفساد وعنوان الضَّلال في الأرض فالمؤمنون رمز الصَّلاح ومن سكنوا بإيمانهم القلب , فلن تهتز صورتهم ولن يستطيع وجه التَّاريخ أن يغيِّر حقيقة طاعتهم وتوحيدهم وإخلاصهم لربِّهم ، فمَنْ كانت قبلتهم الإيمان ، وعنوان حياتهم طاعة الرَّحمن فلن تجد للشَّيْطان معهم مجال ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[2] .

الصُّورة السَّابعة : سبيل الكيد (ك ي د)

يحيا الشَّيْطان مع حياة أوليائه المؤمنين به ، ويخيب رجاؤه وتنقطع آماله ، ويموت حسرة وغيظًا مع أولياء الرَّحمن الذين يحيون حياة ملائكيَّة ، لا تخدعهم الأوهام الكاذبة ولا الأحلام المشوَّهة ، إنَّما يحملون في قلوبهم إيمان الأولياء ، وزهد الأصفياء ، ينير الإيمان دروبهم ، فتنشرح عقولهم وصدورهم .

وفي هذه الحالة لا ييأس الشَّيْطان من تحويل قبلة حياتهم ، بل يحاول أن يقوِّي شوكة أوليائه حتى يصاب أولياء الرَّحمن بالوهن والضَّعف ، فترتجف أفئدتهم قبل أجسادهم فيستحوذ عليهم ، – ظنًّا منه كما صوَّر له خياله المريض – ، وذلك من خلال كيده الذي يكيده به لهم كما في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا[3] ﴾ .

(1) تيسير الكريم الرَّحمن ص 243 . وينظر : في ظلال القرآن 2/ 975 , 976 .

(2) الحجر الآية 42 .

(3) النساء الآية 76 .

والكيد: هو عبارة عن سلوك الطُّرق الخفيَّة في ضرر العدو[1]، أو ضرب من الاحتيال ، وقد يكون مذمومًا وممدوحًا ، وإن كان استعماله في المذموم أكثر[2] .

وأما الآية فهي تُجَسِّد صورة ميدان المعركة عندما يلتقي الحزبان ، أولياء الرَّحمن الذين يقاتلون من أجل تحقيق منهج الله في الأرض رجاء الفوز بثوابه والخوف من عقابه ، وأولياء الشَّيْطان الذين يقاتلون من أجل كراهية المؤمنين وانتصارًا لمنهج الهوى والشَّهوات .

وهنا يأتي دور الشَّيْطان في إبراز حيله ومكره وخداعه ، وذلك عن طريق (الكيد) ، والمراد " بكيد الشَّيْطان : تدبيره ، وهو ما يظهر على أنصاره من الكيد للمسلمين والتدبير لتأليب الناس عليهم[3] " .

فكيده إذًا " ما كاد به المؤمنين من تحزيبه أولياءه من الكُفَّار بالله على رسوله ، وأوليائه أهل الإيمان به[4] " .

فالشَّيْطان في هذا الموقف يحاول بمكره واحتياله خداع المؤمنين بكثرة عدد المشركين وعتادهم , حتى يلقي الوهن والضَّعف في قلوبهم .

ولذلك فربُّ العباد – ﷻ – في هذه الآية يقارن بين أوليائه من المؤمنين وأعدائه من الشَّيَاطين وحزبه، فيرد كيد الشَّيطان على نفسه ، فهو وأولياؤه خواء لا أثر لهم في بثِّ روح الخوف والخزلان في نفوس المؤمنين " فلا تهابوا أولياء الشَّيْطان ، فإنَّما هم حزبه وأنصاره ، وحزب الشَّيْطان أهل وَهَن وضَعف ، وإنما وصفهم جلَّ ثناؤه بالضَّعف ، لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب ، ولا يتركون القتال خوف عقاب ، وإنَّما يقاتلون حَمِيَّة أو حسدًا للمؤمنين على ما أتاهم الله من فضله ، والمؤمنون يقاتل من قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله ، ويترك القتال إن تركه على خوف من وعيد الله في تركه ، فهو يقاتل على بصيرة بما له عند الله إن قتل ، وبما له من الغنيمة والظَّفْر إن سلم. والكافر يقاتل على حذر من القتل ، وإياس من مَعَاد ، فهو ذو ضعف وخوف[5] " .

(1) تيسير الكريم الرَّحمن ص187 .
(2) المفردات ص 666 .
(3) التحرير والتنوير 124/5 .
(4) جامع البيان 547/8 .
(5) جامع البيان 546/8 ، 547 . وينظر: الجامع لأحكام القرآن 280/5 , وتيسير الكريم الرَّحمن ص 187 , ومعالم التنزيل 250/2 .

إذًا ف " الشيطان وإن بلغ مكره مهما بلغ فإنَّه في غاية الضَّعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحَقِّ ، ولا يكيد الله لعباده المؤمنين[1] " .

فالمؤمن يظلُّ دائمًا في حمى ربِّه ، مصونًا بصون الله له ، واثقًا من تأييده ونصره ، سعيدًا بالدفاع عن دينه،وإن ذهب إلى عالم الأموات في سبيله،عالمًا بضعف الشَّيْطان ومكره وخداعه فيظل في مأمن منه ، محفوظًا بحفظ الله له ، ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

ف " الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ؛ لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته ، وإقامة العدل " بين الناس " باسم الله ، لا تحت أي عنوان آخر، اعترافًا بأنَّ الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطَّاغوت ، لتحقيق مناهج شتَّى – غير منهج الله – وإقرار شرائع شتَّى – غير شريعة الله – وإقامة قيم شتَّى – غير التي أذن بها الله – ونصب موازين شتَّى غير ميزان الله ! ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته ، ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشَّيْطان بشتَّى راياتهم ، وشتَّى مناهجهم ، وشتَّى شرائعهم ، وشتَّى طرائقهم ، وشتَّى قيمهم ، وشتى موازينهم ، فكلهم أولاء الشَّيْطان ... الشَّيْطان وليُّهم ، فهم إذن ضعاف ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ "[3] .

فالشَّيْطان إذًا وإن ظهرت علامات مكره وخداعه في حياة المؤمنين به ، المصدِّقين بأوهامه وأكاذيبه ، الذين صفَّقوا له وعانقوه عناق المحبِّ لحبيبه ، فقاتلوا وضحُّوا من أجله , وذهبوا إلى عالم الأموات من أجل نصرة مذهبه ، فالمؤمنون هم من قاتلوا لتكون ﴿ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾[4], فلم يخدعوا بما

---

(1) تيسير الكريم الرَّحمن ص187 . وقيل إن مكره وكيده في الآية" أراد به يوم بدر حين قال للمشركين ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ ﴾ الأنفال الآية 48 . الجامع لأحكام القرآن 280/5. وذلك " لمَّا رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخزلهم " . معالم التنزيل 250/2 .

(2) الملك الآية 22 .

(3) في ظلال القرآن 709/2 .

(4) التوبة من الآية 40 .

obeikandi.com

كاد به لهم ، ولم يضعفوا أمام عدوهم ، فكيده أضعف من أن يؤثِّر فيهم ، أو يهز شعرة واحده من رؤوسهم ، فلم يخافوا أو يجبنوا أمام الموت ، ولم تكن الدُّنيا عقبة في تحقيق أهدافهم ؛ وذلك لأنَّ حقيقة إيمانهم تشهد بأنَّهم يؤمنون بكلام ربِّهم الذي يقول ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1] .

الصُّورة الثَّامنة : سبيل النَّجْوى (ن ج و)

يبتكر الشَّيْطان في هذا السَّبيل بعض أساليب مكره وخداعه حتى يفتن بها قلوب المؤمنين المخلصين من عباد الله – ﷻ – ، ظنًّا منه أنَّه بذلك يوغر قلوبهم ويحوِّلها إلي كتلة من الغيظ تشتعل نارًا ، دائمًا ملتهبة لا تهدأ أبدًا ، فينتقل بهم من عالم الإيمان والسَّعادة والاطمئنان بوعد الله ونصره لهم إلى عالم ليس للصِّراع فيه حدود ، ولا لليل فيه انجلاء ، وإنما الكلمة فيه لصورة الأجساد التي لا تحمل القلوب فيها إلا إحساس بالذِّلة والهوان والحزن والآلام ، نتاجًا لصورة الخداع ، وإظهارًا لقوة وهميَّة لا حقيقة لها إلا في الخيال والأوهام .

فهذا هو سبيل (نجوى) الشَّيْطان الذي يكيد به للمؤمنين المخلصين ، والذي عرضت له الآية الكريمة في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2].

فالنَّجْوى هي من نجاه نَجْوًا ونَجْوى : سارَّه ، والنَّجْوى والنَّجِي : السِّرُّ[3] ، والنَّجْو : السِّرُّ بين اثنين ، يقال : نجوته نَجْوًا : إذا ساررته ، وكذلك ناجيته[4] .

والنَّجْوى في الآية الكريمة مدخل من مداخل الشَّيْطان، وهي أن تجتمع طائفة بعيدًا عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة لتبيت أمرًا[5] , حيث " كان المنافقون يتناجون بينهم ، وكان ذلك يغيظ المؤمنين، ويكبر عليهم[6] " .

---

(1) آل عمران الآية 169 .

(2) المجادلة الآية 10.

(3) لسان العرب 6/4361 .

(4) الصحاح 6/2503 .

(5) في ظلال القرآن 2/758 .

(6) جامع البيان 13/241 .

obeikandi.com

وقد " تناجى أعداء المؤمنين بالمؤمنين ، بالمكر والخديعة ، وطلب السوء من الشَّيْطان ، الذي كيده ضعيف،ومكره غير مفيد(ليحزن الذين آمنوا) هذا غاية هذا المكر ومقصوده[1] ".

لذلك كانت هذه الآية " تسلية للمؤمنين وتأنيس لنفوسهم يزال به ما يلحقهم من الحزن لمشاهدة نجوى المنافقين لاختلاف مذاهب نفوسهم إذا رأوا المتناجين في عديد الظُّنون والتخوفات ... والمعنى أن النَّجْوى يوهم الذين آمنوا ما ليس واقعًا فأعلمهم الله أن لا يحزنوا بالنَّجْوى ؛ لأنَّ الأمور تجري على ما قدَّرَه الله بنفس الأمر حتى تأتيهم الأخبار الصادقة[2] " .

فمهما تلوَّنت صور الشَّيْطان وتعدَّدت أشكاله فـ " وعد الله قاطع في أنَّ الشَّيْطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد في الجماعة الآمنة ؛ لأنَّ الله حارسها وكالئها ، وهو شاهد حاضر في كل مناجاة ، وعالم بما يدور فيها من كيد ودسٍّ وتآمر.ولن يضرَّ الشَّيْطان المؤمنين إلا بإذن الله،وهو استثناء تحفظي لتقرير طلاقة المشيئة في كل موطن من مواطن الوعد والجزم،لتبقى المشيئة حرَّة وراء الوعد والجزم[3] " .

فليعلم الشَّيْطان أن قلوب هؤلاء المؤمنين الصَّالحين معلَّقة بربِّ الأرض والسماء ، فهم في حصن حصين من حيله وخداعه, " فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنَّصر على الأعداء ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[4] ، فأعداء الله ورسوله والمؤمنين ، مهما تناجوا ومكروا ، فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم ، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدَّره الله وقضاه ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده ، فإنَّ مَنْ توكَّل على الله كفاه ، وتولَّى أمر دينه ودنياه[5] " .

وقد تتَّجه الآية إلى التحذير والتأديب من تحويل هذه الصِّفة الذميمة التي استعبد بها الشَّيْطان قلوب الكافرين والمنافقين إلى قلوب عباده الصَّالحين ، حيث " قال الله مؤدِّبًا عباده

(1) تيسير الكريم الرَّحمن ص846 .
(2) التحرير والتنوير 34/28 ، 36 .
(3) في ظلال القرآن 3511/6 .
(4) فاطر من الآية 43 .
(5) تيسير الكريم الرَّحمن ص846 .

المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾[1] أي : كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مَالأهم على ضلالهم من المنافقين[2]"

ولكن كان لابن زيد رأي آخر ، حيث قال : " كان الرَّجل يأتي رسول الله – ﷺ – يسأل الحاجة ليرى الناس أنَّه قد ناجي رسول الله – ﷺ – قال : وكان النبي – ﷺ –لا يمنع ذلك من أحد ، قال : والأرض يومئذ حرب على أهل هذه البلد ، وكان إبليس يأتي القوم فيقول لهم : إنَّما يتناجون في أمور قد حضرت وجموع قد جمعت لكم وأشياء ، فقال الله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[3]".

فالنَّجْوى إذًا ناتجة من مكر الشيطان وخداعه ، أو قل تسويل الشيطان وتزيينه[4].

فليستدع الشيطان حزبه وجنوده ، وليصوِّر لهؤلاء المؤمنين المخلصين ما شاء من حيله ومكره وخداعه ، فكلُّ ذلك عائد على نفسه وأوليائه ، وتدبيره ينقلب حتمًا إلى تدميره ، فقد أصيب بالعقم ، ولن يلد العقيم إلا بأمر ربِّه ، فعالم الصَّالحين ضربات القلب تنبض فيه بالإيمان واليقين ، وحياة الرُّوح تحيا فيه في مقام أمين ، فهم المحسنون الذين اتَّبعوا السَّابقين الأولين فرضي الله عنهم وأرضاهم كما قال ربُّنا – ﷻ – : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾[5]

.

---

(1) المجادلة الآية 9 .

(2) تفسير القرآن العظيم 8/44 .

(3) جامع البيان 13/242 .

(4) تفسير القرآن العظيم 8/44 .وينظر: الجامع لأحكام القرآن 17/295، ومعالم التنزيل 8/56 .

(5) التوبة من الآية 100 .

obeikandl.com